اللغة والألفاظ

الدعوة الى اقتصارها لتسهيلها

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

اللغة تتبع الدولة، وتسير في ظلها، ولا سبيل إلى انتشار لغة يُغلب أهلها على أمرهم، وبعيدٌ أن تُصد عن الذيوع لغةٌ يتسع سلطان أبنائها وتنبسط رقعة ملكهم أو نفوذهم، ولاعبرة في هذا الأمر بما في اللغة نفسها من سهولة أو عسر في التحصيل، والمعوّل على القوة والسلطان، لا على أن اللغة قريبة المنال أو بعيدته، ويسيرة المطلب أو عميقة الاغاص، وقد استطاعت اللغة الانجليزية أن تنتشر في الأرض وأن تنفذ إلى مجاهلها، وأن تزحزح الفرنسية وتحطها عن عرشها، لأن سلطان هذه الدولة امتد شرقاً وغرباً، وليست الانجليزية أسهل من الفرنسية أو العربية، ولكن قوة أهلها أكبر، ونشاطهم أعظم؛ وهذه «الاسبرانتو» التي اخترعوها لتكون اللغة المشتركة بين الأمم ماذا كان مآلها؟ يعرفها آحاد راقتهم الفكرة، ولا يعبأ بها أحد فيما عدا هؤلاء النفر القليلين، لأنه ليس وراءها ولا قدامها دولة لها سطوة، وفي الهند لغات عدة لا رجاء لاحداها حتى في أن تصبح لغة الهند كلها مادامت انجلترا تحكمها، وفي مصر جالية أجنبية ليس أنشط منها ولا أكثر عدداً، هي الجالية اليونانية، ولكنه يندر أن يعنى مصري بتعلم لغتها، على حين نتعلم الانجليزية في مدارسنا ونعدها لغتنا الثانية

ولا آخر لما يمكن أن نضربه من الأمثال ونسوقه من الشواهد، فحسبنا هذا القدر، فالذين يقولون إن الستر اوجدن قد تخير من اللغة الانجليزية خمسين وثمانمائة لفظ رآها كافية وافية بحاجات التعبير كلها، وأن مثل هذا الاختصار أو الاختزال ميسور في اللغة العربية، وإنه يعين على نشر اللغة ويفضي إلى ذيوعها، ويتيح لها أن تصبح «عالمية» — أقول إن الذين يذهبون هذا المذهب، ويفكرون على هذا النحو، يغلطون ويقلبون المسألة، ذلك أن هذه الألفاظ الثمانمائة ليست اللغة الانجليزية، ولا فيها لأبنائها وعلمائها وكتابها وساستها أي كفاية، وإنما هي حسب الأجنبي الذي يريد أن يتصل بأهلها اتصال تجارة أو ما هو من هذا سبيل، وقد ابتكر الستر اوجدن هذه الوسيلة ليمكن للغته ويزيدها ذيوعاً، لا لينشرها، فقد تكفلت بنشرها الامبراطورية الطويلة العريضة من قبل أن يخلق الستر اوجدن؛ ولو أنك عمدت إلى مثل ذلك في لغة الفرس أو إحدى لغات البلقان الكثيرة، لما أجدى ذلك شيئاً، ولما جاوز بها هذا التسهيل صبغتها المحلية

وشيء آخر يغلط فيه أصحابنا الذين افتتنوا بالتسهيل، ذلك أن السهولة مرجعها إلى العقل، لا إلى الألفاظ، فلو أنك قصرت اللغة على ثمانين لفظاً، لا ثمانمائة، لما اختلف الحال، ولبقيت المسألة حيث كانت، لأن المعول في التعبير على الكاتب؛ وليس على عدد الألفاظ، وما من كاتب أو شاعر في الدنيا يستعمل كل ما في لغته من كلمات، والسهولة مردها إلى أمور لا علاقة لها باللفظ في ذاته ومن حيث هو، منها أن يكون المعنى الذي يلتمس المرء العبارة عنه، واضحاً في الذهن، ومنها أن يحسن الكاتب بعد ذلك انتقاء الألفاظ التي يؤدي بها المعاني، وكثيراً ما يحدث أن يكون المعنى غامضاً، أو غامضاً، أو غير واضح على العموم، في ذهن المرء، فيحاول العبارة عنه قبل أن يدركه هو نفسه أو يحيط به، فيجيء الكلام مضطرباً غير مفهوم، لأنه لا سبيل إلى البيان إلا بعد أن يعرف المرء ماذا يريد أن يقول، وقد يكون المرء عارفاً بما في نفسه؛ مدركاً للمعاني الدائرة فيها، ولكنه لا يعرف كيف يعبر عنها ويبرزها في صورة واضحة، فيسيء الأداء؛ وإن كان قد أحسن التفكير، ويقصر في العبارة؛ وإن لم يقصر في فهم ما يرد على خاطره ويتمثل له من الخوالج. وفي وسعي أن أكتب لك سطوراً ليس فيها كلمة واحدة غير مألوفة، أو لا يعرفها العامة والأميون ومع ذلك لا يستطيع أن يفهمها أحد، وفي مقدوري كذلك أن أعبر عن أدق الاحساسات وأعمق المعاني وأعوصها تعبيراً يحمل القارئ على الظن بأن هذه كلها من البدائه، لأن العبرة كما قلت ليست بالألفاظ ولا بكونها غريبة أو مألوفة، وحوشيّة أو مأنوسة، بل بالكاتب نفسه، أي بوضوح المعنى الذي في رأسه

أو غموضه ، وبقدرته على أدائه أو عجزه عن ذلك . وقد يتفق لك أن تحادث رجلاً عامياً لا يقرأ ولا يكتب ، فتسمع منه كلاماً كالتخليط أو الهذيان لا تستطيع أن تتبين منه مراده ، فهذا العامي الأمي لم يرجع إلى الغريب من ألفاظ اللغة ولم يستعمل المهجور والدارس منها ، وإنما استعمل ألفاظاً يعرفها الأطفال والباعة والجهلة والمتسولون ، ومع ذلك أعياك أن تفهم كلامه . فلو أن الألفاظ هي التي يرجع إليها أمر الغموض أو البيان ، والصعوبة أو السهولة ، لوجب أن تفهم عنه ، ولما كنت معذوراً إذا لم تفهم

فلا قيمة إذن لعدد الألفاظ التي في اللغة ، ولتكن ألفاً لا أكثر ، أو مائة ألف ، أو أقل من ذلك أو أكثر ، فلن يختلف الأمر في الحالين ، والأمر من حيث الأداء في اللغة مثله في التصوير ، ذلك أن الألوان التي يستعملها المصور قليلة العدد جداً ، وهي أداة المصورين جميعاً كما أن الألفاظ أداة الكتاب ، ولسنا نظن أن أحداً سيزعم أن قلة الألوان التي يستخدمها المصور جعلت التصوير أسهل ، وما من مصور إلا وهو عارف بالألوان وكيف يستعملها وكيف يزاوج بينها ، ومع ذلك يجيء واحد بالصورة الناطقة بل التي تكاد تصيح من قوة النطق ، ويجيء آخر بغير شيء ، ولا نحتاج أن نقول إن الألوان لا ذنب لها ، وإن المصور نفسه هو الذي لم يستطع أن يؤدي بها ما أراد أن يبرزه أو يثبته أو يدل عليه أو يرمز له ، وكذلك في الكتابة : لا ذنب للألفاظ ، فانها — وهي مفردة — لا تؤدي شيئاً ، ولا فرق بينها ، ولا فضل لواحدة على واحدة ، وإنما تصير كلاماً بعد أن يحدث فيها الكاتب نظماً أي بعد أن يؤلف بينها ، كذلك الألوان ليست هي الصورة ، وإنما تصبح صورة بعد المزج والمزاوجة والتأليف

وسواء أقلت الألفاظ المستعملة أم كثرت ، فسيظل هناك كتاب مشرقون وانحون يسهل ورود كلامهم ويحسن وقعه ، وآخرون غامضون أو معوصون ، يحطمون رؤوس القراء لأنهم يكتبون قبل أن يتبينوا ما في نفوسهم من الخواطر أو الاحساسات أو لأنهم لم يرزقوا القدرة على الأداء الحسن الواضح ، أو لأن في أسلوب تفكيرهم التواء ، أو لأن في طريقة تناولهم للموضوع عوجا ، أو لغير ذلك من الأسباب الراجعة — في مرد أمرها — إلى المرء نفسه لا إلى الألفاظ . ولو كان الأمر رهناً باللفظ وحده لهان الخطب ، وما على الانسان حينئذ إلا أن يفتح معجما — إذا اعترضه لفظ غريب

وعلى أن الواقع أن عدد الكلمات التي يستعملها الكتاب ، قليل جداً إذا قيس إلى ما في اللغة ، وهو لا يزيد على بضع مئات ، ومن هذه المئات القليلة يحدث كل كاتب أو شاعر آلافاً من الصور ، وبها يؤدي ما لا يستطيع أن يحسبه الحاسب من المعاني والخواطر والاحساسات ، كما يستطيع المصور — بيضعة ألوان — أن يرسم مئات من الصور لا تشبه واحدة منها أختها ، فلا معنى إذن لهذه الضجة التي يثيرها بعض إخواننا الكتاب حول اللغة ووجوب الاقتصار على المألوف من ألفاظها ، وهجر المهجور منها ، لأن هذا حاصل من تلقاء نفسه ، والكاتب الذي يؤثر الاغراب ويلجأ إلى الميت والدارس من الألفاظ ، يجني على نفسه بذلك ، وكثيراً ما يحدث أن يضطر أمثاله إلى تنكب هذا الطريق الأعوج والرجوع إلى النهج المستقيم

* * *

وبعد ، فانه لا يصح أن يقال إن لغة من اللغات عيبها كثرة ألفاظها ، فان الألفاظ تنشأ ، وتحيا ، وتموت ، على حسب الحاجة ، والناس لا يشتقونها أو ينحتونها ، أو يضعونها ، أو يستعيرونها من اللغات الأخرى ، للترف ، بل للضرورة في وقتها ، وللألفاظ حياتها كما للناس ، وهي — مثلهم — أجيال ، حتى معانيها تتطور على الأيام ، ويجري عليها من الحظوظ ما يجري على كل كائن حي ، وإنما الذي يصح أن يقال ، والذي يقبل من قائله ، هو أننا نسيء تعليم لغتنا ، ونجعلها بسوء طريقتنا في تعليمها وبتقصيرنا في حقها ، أعوص مطلباً مما هي في الحقيقة وأشق في التحصيل على أبنائها — فضلا عن الغرباء — من اللغات الأجنبية التي أحسن أهلها القيام على خدمتها وذللوا لطلابها ما فيها من صعوبات لا تخلو منها لغة

وما عدا ذلك خلط لا قيمة له

ابراهيم عبد القادر المازني